لغتُنا العربيّةُ تتلألأُ حَضارةً وعِلماً في الفكرِ العالميّ

الأستاذ الدكتور رضوان بن خليل الدبسي

أولاً – أهميّةُ العربيّةِ: لغةٌ عالميّةٌ لفكرٍ عالميّ:

اللغةُ العربية، لغةٌ مكتملةُ النموّ، استطاعت أن تعبّرَ عن دقائق المشاعر الإنسانية والصور والأحاسيس، وهي التي حدّدت هُويّة العربي، يشدو بها منطلقاً في جزيرته العربية بأجمل الصور الشعرية، وأعذب الرؤى النثّرية، وهي تنحو في ثنايا تكوينها وخصائصها الذاتية منحىً إنسانياً، وعالمياً، يصل إلى آفاق العالمية والإنسانية. وقد تجسَّدَ هذا المنحى عندما أصبحت العربيةُ لغةَ الوحي الإلهيّ، اختارها الله – سبحانه وتعالى – لغةَ التنزيل العزيز في محكم آيات القرآن العربي المبين، وهكذا وجدت اللغة العربية مجالها الحيوي في عالمية الدعوة الإسلامية بوصفها لغة القرآن الكريم. وقد واكبت اللغة العربية حركة النهضة الحضارية العربية الإسلامية وأصبحت – في عصورها – لغةً عالميةً بفضل انتشار الإسلام، وفتحت صدرها لتراث الإنسانية، وحفظت ما تركه الأقدمون، فأسّسَ العربُ لنهضةٍ علميةٍ، قدّمتْ معجزة في حضارة جديدة، قامت على العلم والمعرفة والإنجازات المفيدة للعالمين انطلقت من هذه الأرض العربية مع الفاتحين، رسل الحضارة والعلم والفكر والإيمان.

لقد أُتيح للعربية أن تتحول – بذلك – إلى لغة عالمية عبر العصور الإسلامية المتعاقبة لأنها واجهت لغات وحضارات متعدّدة، فأثبتَتْ أصالتَها واستيعابها لكل جديد في هذه الحضارات التي طوّعتها وفق معاييرها العربية الإسلامية العالمية.. وأصبحت اللغة العربية لغةَ جميع الشعوب المنتسبة إلى الدولة العربية، والرابط الأساسي للعلم والفكر، والعمل والدين والحياة... وبذلك كانت اللغة العالمية الأولى في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري.. وتجلّت عالميّتُها بصورة واضحة، عندما كانت البعثات العلمية من مختلف الأقطار الأوربية تؤمُّ مراكز الإشعاع الثقافي في دمشق وقرطبة وإشبيلية وغرناطة.. وغيرها للدراسة باللغة العربية وبمصادرها العلمية العربية الفريدة في وقتها. واحتلت – بذلك – اللغة العربية والحروف العربية والأرقام العربية مكانة الاحترام والقداسة والتقدير في نظر وآراء جماهير تلك الشعوب، فانفردت اللغة العربية بتحقيق هذه العالمية من بين جميع لغات الأمم الأخرى.. لأنها أصبحت لغة الفكر والثقافة، والعلم

والإدارة، والمراسلات والتجارة، والطبّ والهندسة، ووسيلة الاتصالات الدولية.. والآداب والحياة اليومية.

بعالمية لغُتنا، احتفلت بيروت (عاصمة الكتاب العالمي لعام 2009م)، والقدس (عاصمة الثقافة العربية لعام 2009م) وكما احتفلت شقيقةُ القدس وبيروت.. دمشق (عاصمة الثقافة العربية لعام 2008م) وكان أمام القمّة العربية مشروعٌ لربط اللغة العربية بمجتمع المعرفة كي تكون لغةً للثقافة والحياة، تحفظ كياننا وتصونُ هوُيّتنا الحضارية.

سـلِ المعـالي عَنّـا إنّنـا عـربٌ شـعارُنا المجـدُ يَهوانـا ونَهـواهُ

هـي العروبـةُ لفـظٌ إنْ نطقـتَ بـهِ فالشـرّقُ والضّـادُ والإسـلامُ مَعنـاهُ

ثانياً – حضارةٌ سادَت العالمَ ألف عام بلُغتنا العربيّة:

(كانت العربيّة لغة العلوم والرياضيات والطب والسياسة والدبلوماسية، وظلَّ العلماء الرياضيون والبنّاؤون والأطبّاء والمؤرخون المسلمون والعرب أساتذة الأساتذة وفلاسفة الفلاسفة ومعلمي المعلمين نحو ألف عام)!.. عبارة ذهبيّة خالدة، ذكرَها سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم في كتابه (رؤيتي)، إيماناً من سموّه بقيمة لغتنا العربية التي سادتْ بها حضارتنا العربية العالم قاطبةً، وهو القائل في قصيدته العصماء (اللغةُ الخالدة):

يـا كاتـبَ المجـدِ سـجّلْ عـن مآثرِنـا مـا قَـدْ يـروقُ لحسّـادٍ ولمْ يَـرُقِ

يـا كاتـبَ المجـدِ خَبّـرْ عـن تقـدّمِنا ومـن عجائـب الزّمـانِ سُـقِ

وكيـفَ أنّـا أعـدْنا شمـسَ أمّتِنـا مِـن بعـدِ أنْ قاربَـتْ تـدنو مـن الغَسَـقِ

نُلنـا الثّنـاءَ مِـن الـدّنيا فسـيرتُنا كسـيرةِ الـوردِ في الأشـواقِ والعَبَـقِ

مآثرنا في حضارتنا التي حمل مشاعلها علماءٌ موسوعيون.. برزوا في الفقه والتفسير، والحكمة والتنوير، وفي علمهم بالفلك والطبّ والهندسة والزخرفة والتعمير، وتألقوا بالنثر والشعر والأدب والفكر المنير. كتبوا بلغتهم العربية حضارات الأمم العربية وغير العربية بمخطوطاتهم التي جاوزت مئات الملايين.. وانتفع بها أناسٌ

من مئاتِ الملايين.. ونشروا كتبهم بعربيّتهم، والتي جاوزت لأحدهم وهو العلامة السيوطي التسعمئة كتاب.. وجمعها محبّوها في أنحاء العالم فخراً بالحضارة التي فيها.. فكانت – مثلاً – مكتبة الصاحب بن عبّاد في القاهرة تحوي أكثر من مليوني كتاب.. في الوقت نفسهِ الذي كانت أوروبا كلها لا تضمّ أكثر من مليون كتاب!.. وشواهد هذه الحضارة ومآثرها وآثارها خالدة في أذهان الفكر البشري لا تمحوها السنون.. ولا ينكرها الحاقدون. ثمار حضارة عالمية متجدّدة، نافعة للبشرية قاطبة، كنعم الله سبحانه وتعالى التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

ثالثاً – العربيّةُ لغةُ علمٍ وحضارة: مشفى دمشق 705م، جامعة قرطبة 786م... وبيتُ الحكمة في بغداد 832م:

هـــذي ميـــادينُ العلـــوم مصـــانعُ ... الفكـــر، فـــاقطفْ مِـــن جَنـــاكَ منَـــالا

وارتَـــعْ بـــأرضٍ قـــدْ غَرســـتَ غِراسَـــها ... وسَـــــقْيتَها النَّـــــبْضَ السَّـــــخيَّ زُلالا

وأَرِحْ فـــؤاداً قـــد أطـــالَ رحيلَـــهُ ... مُتَـــــدرّعاً هِمـــــمَ البِنـــــاءِ ثِقـــــالا

ميادينُ العلم، ومصانع الفكر، هي الشواهد والآثار الخالدة، لتلك المآثر الخالدة.. التي غرسها علماؤنا الأوائل وجنى ثمارها الأوائل واللواحق من شعوب الأمم المختلفة القريب منا والبعيد عنا.. من أرضنا العربيّة الخيّرة.. انطلقت الأبجدية والكتب وشاعت فيها المدارس والمعاهد والمستشفيات.. من أمير النور إلى أمير الأطباء الرئيس ابن سيدنا إلى ابن رضوان عميد أطباء القاهرة والملقب بتمساح الشياطين!... وتعلم الناسُ فيها المناهج التجريبية.. وحيل التقنيات الهندسية.. وكان الاسطرلاب الفلكي الزمني في عصره.. كالحاسوب أهميّة في عصرنا.. وبرزَ ابن معروف الدمشقي (كأبي التكنولوجيا عند المسلمين)... وأضاءَتْ حضارتُنا الظُّلمات.. وعمَّ خيرُها وضياؤُها أبناءَها.. وغير أبنائها، ماذا أُعدّد؟.. بل ماذا أذكرُ من شواهد وآثار فهي لا تُعدُّ ولا تحصى.. فالمعذرة.. سأكتفي بشواهد بسيطة جداً.. ولكنّها عظيمةٌ جّداً – وباختصار شديد.. واحتراماً لعلمكم وخبراتكم ووقتكم – سأفتح فقط أبواب: مشفى دمشق.. وجامع قرطبة.. وبيت بغداد!..

• **مَشْفَى دمشق:** يُعتبر أولُ مستشفى عربي إسلاميّ، تمَّ بناؤُه في دمشق بأمر من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فيما بين العامين 705م و715م، وكان عبارة عن عيادة طبية، أنشئ بها قسمٌ خاص

لعزل المصابين بالأمراض السارية (كالجذام).. ثم لم يلبث هذا المستشفى أن أصبح مع مرور الزمن يتمتع بصفات المستشفيات الإسلامية العامة في المعالجة المجانية مع توفر الطعام والدواء والأقسام العلاجية الخاصة للمرضى وللإسعاف الفوري ولتعليم طلاب الطبّ كمعهد للطبّ العام، وكان الأطباء يتشاورون فيما بينهم لتحديد الأمراض غير العادية (المستشارون).

ولا ننسئ أنَّ المرضى كانوا يتمتعون بالرعاية التامة المجانية، وبعضهم كان يُمنح بعد خروجه من المستشفى تعويضاً مالياً لشهر كامل.. عافاكم الله.. وهذا ما عرفناه في بقية المستشفيات العربية الإسلامية فيما بعد في الحواضر الإسلامية.. من بغداد إلى دمشق والقاهرة وطليطلة.. حتى أن الزائرين للمستشفيات كانوا يصفونها (بالقلاع العظيمة).. التي تزهو بتعاملها باللغة العربية، بأيدٍ عربية وبأدويةٍ عربية.

• **جامع.. بل جامعة قرطبة:** بدأ الخليفة الأموي عبد الرحمن الأول (الدّاخل) في العام 786م، بناء مسجد قرطبة.. الذي بعد إتمامه وتوسعته وزخرفته يُطلق عليه (مسجد قرطبة العظيم) خلال 26 عاماً، كما أطلق على قرطبة (جوهرة الأندلس الأموية).. وكانت حلقات العلم والتعليم تتوزع بين أروقة الجامع.. منها انطلق خرّيجوها لتأسيس المدارس العالية الشاملة لكل أنواع العلم والفكر في أنحاء قرطبة.. وتأسسّت فيها أول كلية وجامعة للطب عربية في قلب أوروبا الأندلسية، فكان يتخرّج سنوياً في قرطبة مئات الكيميائيين والمهندسين والفقهاء، والفلاسفة والمدرسين والأدباء، وعلماء الفلك والرياضيات والأطباء.. وأصبحت قرطبة سيدة المدن، وأكبر مدن أوروبا كلها بثقافتها العربية.. ضمّت في أوائل القرن العاشر الميلادي ما يزيد عن مئة مدرسة.. ثلثها من المدارس العليا (جامعات حسب النظام الفرنسي).. وستمئة مسجد.. وعدد كبير من المستشفيات والمكتبات التي تضم مئات الآلاف من الكتب والمخطوطات.. تزهو باللغة العربية علماً وتعليماً.. ولكلّ الفئات والطبقات.

• **بيتُ الحكمة في بغداد:** الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد (786م-833م)، عُرف بعشقه للعلم.. أسّسَ (بيت الحكمة-832م) كمركز علمي تعليمي عربيّ.. يضم مرصداً ومستشفى ومكتبة ضخمة وبرامج بحثية في علوم البلاغة والفقه والمنطق والجبر والمثلثات والهندسة والفيزياء والأحياء والطب

والصيدلة.. بأقسام منفصلة.. وسيّد أقسام المعرفة هذه تلك ما ضمَّ العلماء الذين تفوّقوا في أعمال الترجمة من اللغات القديمة التي وجدت كتبها بلغاتها في زمانهم إلى اللغة العربية، بالإضافة إلى الكُتّاب والنُسّاخ.. وكانت تُخصص للعلماء والمترجمين مكافآت كبيرة لأعمالهم.. مع تلبية طلباتهم من خدَم ومساعدين وبذلك أسّسَ المأمون ما نستطيع أن نسميه اليوم (أكاديمية الترجمة) أو المعهد العالي للترجمة.. بخبرات ولغة عربيّة. ولا تخفى على حضراتكم أهمية هذه الرموز العظيمة لحضارتنا العربية وآثارها في نقل حضارتنا العالمية العربية إلى الفكر العالمي للأمم الأوروبية وغيرها.

لغـــةٌ لهـــا كـــلُّ الخلائـــقِ تَنْحـــني شـــرَفاً يفجّـــرُ حُسْـــنَها زِلْـــزالا
كَـــمْ مِـــن عَشـــيقٍ راحَ يطـــرقُ بابَهـــا فاسْـــتَقْبَلَتْهُ، وفكّـــتِ الأَغْـــلالا

رابعاً – شهاداتٌ عالميّةٌ بتلألئِ لُغتنا العربية.. فِلمَ لا نَسودُ ولمَ لا نُشيد؟:

يـــا ســـيّدَ الإبحـــار في فَلَـــكِ النُّهـــى والفِعـــلُ مِنْـــكَ يُســـابقُ الأقـــوالا
جَـــدّدْ دمـــاءَ الابتكـــار بِـــأمتي وانِســـجْ لَهـــا مِـــن وَهـــجْ فِكْـــرِك شـــالا
قُـــدْها إلى الإبـــداع كـــي ترقـــى إلى فِعـــلٍ يقـــودُ إلى الجَنـــوبِ شِمـــالا

شهاداتٌ منسوبةٌ إلى أصحابها من مفكّرين عالميّين لما رأوا وعلموا وأقرّوا عن معرفةٍ ويقين.. أشادت بتلألئ لغتنا العربية كلغةٍ عالميّةٍ لفكرٍ عالميّ.. أفلا يحقُّ لنا أن نَسَود؟ ولم لا نُشيدُ من جديد..؟ أرجو أن تسمعوا بعضها باختصار شديد..

- **المستشرق البلجيكي العلامة جورج سارتون** (1884م-1956م)، والذي درسَ اللغة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت (1931م)، وكان عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية بدمشق يقول: (المسلمون عباقرةُ الشرق، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تتمثّل في أنهم تولّوا كتابة أعظم الدراسات قيمة، وأكثرها أصالة وعمقاً، مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراء لغة العلم للجنس البشري).

- **غوستاف لوبون** – العلامة الكبير المعروف – يقول في كتابه المشهور والقيّم (حضارة العرب): (لقد

كان العرب أساتذتنا، وإنّ جامعات الغرب لم تعرف لها مورداً علمياً سوى مؤلفات العرب، فهم الذين مَدَّنُوا أوروبا مادّةً وعقلاً وأخلاقاً، إن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها).

• **برناردلويس** (المولود عام 1916م)، أستاذ الدراسات الشرقية في الجامعات البريطانية والأمريكية، يقول: (لقد قامت حضارة أصيلة مستوحاة من العقيدة الإسلامية، مدعمةٌ بثراء اللغة العربية، حضارة تنمو وتتسع وتعيش طويلاً، صنعها الرجالُ والنساء من مختلف الأعراق والديانات، وقد اصطبغ كلَّ شيء فيها بالعروبة والمبادئ والقيم الإسلامية).

• **جواهر لال نهرو**، الزعيم الهندي العظيم، قال: (إن قصة انتشار العرب في آسيا وأوربا وأفريقيا، والحضارة الراقية، والمدنيّة الزاهرة التي قدموّها للعالم هي أعجوبة من أعاجيب التاريخ).

هذا مِسْكُ الختام، ما أحببتُ أنْ أطيلَ في الشواهد والشهادات.. وذكرتُ مراجعها في نهاية أوراقي، لأنّ موضوعي يتصل بجانب مهم أيضاً للحديث عن أثر الإبداع العربي في القصص والنثّر والشعر.. والخطّ العربي.. والزخرفة الإسلامية.. في الغرب وفي الشمال وفي الجنوب (إذا تركنا الشرقَ لنا).. فكل ذلك له أبحاثه ودراساته المستقلّة.. المعذرة فلم أتطرّق إليها.

إذا تراكمـــــت الأســـــوارُ والحجـــــبُ وضـــاعَ خلـــفَ تُخـــوم الغُربـــةِ النَّسَـــبُ

فـــلا تخـــافوا.. لكـــم صـّــدْرٌ يضـــمّكمْ ســـتلتقون علـــى صـــدري.. أنـــا العـــربُ

شكراً للتفّضل بإصغائكم.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

دبي (الإمارات) شوال 1432هـ

سبتمبر 2011م

أ. د. رضوان بن خليل الدبسي

المراجع المعتمدة في البحث

1- أبو شنب، ميساء أحمد، (الأستاذة). تكنولوجيا تعلّم اللغة العربية. الطبعة الأولى –

دمشق2008م.

2- الدبسي، رضوان، (أ. د.). أثر وسائل التقنية في تطوير تعليم اللغة العربية. الطبعة الأولى – الشارقة (الإمارات): جمعية حماية اللغة العربية – 2002م.

3- الدبسي، رضوان، (أ. د.). اللغة العربية ومناهج تعليمها. الجزء الأول. الشارقة (الإمارات): جمعية حماية اللغة العربية – 2003م.

4 – زويل، أحمد (بروفسور – نوبل): عصر العلم. ط 14 دار الشروق (القاهرة – 2005)

5- معدّي، الحسيني الحسيني (أ)، علماء وحكماء من الغرب أنصفوا الإسلام. دار الكتاب العربي: دمشق والقاهرة 2007م.

6- مورغان، مايكل هاميلتون (سفير أمريكي سابق). تاريخ ضائع. ترجمة: أميرة نبيه بدوي. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة 2008م.

7- هونكه، زيغريد (الدكتورة الألمانية). شمس العرب تسطع على الغرب. ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي. دار الآفاق الجديدة – الطبعة السادسة – بيروت 1981م.

8- الدبسي، رضوان، (أ. د.). مقالات (درر من لآلئ لغتنا العربية) في مجلة (العربية) الصادرة في: الشارقة (الإمارات): جمعية حماية اللغة العربية – الأعداد من 1-40 للأعوام: (2007م-2009م). إهداء ..بعض كتبي وأعداد من مجلتنا (العربية).

ملاحظة: الأشعار الواردة في البحث: من قصيدة (اللغة الخالدة) لصاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم. قصيدة (مهندس العقول الذي نريد) للدكتور أكرم جميل قُنبس. أبيات للشاعر سليمان العيسى. مع فائق الشكر والتقدير والاحترام لهم لفضلهم وشاعريتهم المتلألئة.